هـــل نـــحـــن أمـــــة أم شـعـــب؟

أحمد حسين

جميل ومفرح أن يتردد كثيراً مسمى الأمة العراقية على ألسن عدد لا بأس به من الكتّاب والساسة والمثقفين، إنه أمر يبشر بخير ويغذي أمل من يطمحون إلى ترويج وترسيخ هذا المفهوم في ضمائر العراقيين وعلى ألسنتهم، هو خطوة باتجاه الإيمان بأن العراق أمة مستقلة ولا تدين بالولاء لأية أمة أخرى، لكن حكومات وأحزاباً فارغة المحتوى لم تجد ما يملأ خواها سوى الاحتماء بحمولات عنصرية وطائفية لتفرض وجودها بقوى رجعية وأخرى خارجية تمدها بأسباب البقاء على سدة الحكم.

الكثير ممن يتداولون هذا المفهوم يتعاملون معه كمسمى للعراقيين بمختلف مكوناتهم العرقية والعقائدية، وبالرغم من أنه مفهوم له أبعاده الفكرية والثقافية والاجتماعية، لكن الأهم هو اتساع دائرة تداوله وهذا هو المكسب الذي يطمح إليه دعاة الأمة العراقية لإعادة إحياء الهوية الوطنية الشاملة.

إلا أن الفرحة باتساع دائرة التداول لا تمنع من توضيح التباس يقع فيه من يرد في كتاباتهم أو أحاديثهم مسمى الأمة العراقية، وهو الخلط بين الأمة والشعب وإيرادهما بنفس المعنى وكأنهما كيان واحد لا يفرق بينهما سوى اختلاف اللفظ، لكن الفرق كبير بين الاثنين، .سنأتي على تعريفه لاحقا.، ففي المقال أو الحديث نفسه، يكون العراقيون مرة أمة ومرة شعب، وهو ما يسبب إرباكا للمتلقي ويشجع على التردد عن الإيمان باستقلالية الأمة العراقية ويرسخ لديه أن العراقيين شعب هو جزء من أمة أكبر، بدلاً من تعزيز الهوية الوطنية.

هناك أيضا مغالطة كبيرة لها تداعيات سلبية تماثلها في الحجم لطالما سمعناها وقرأناها لمفكرين ومثقفين وكتّاب وساسة عراقيين وحتى غير العراقيين، ألا وهي ثنائية الشعب العراقي . الشعب الكردي، فالمسمى الأخير كان في العهد المباد من المحرمات التي تودي بناطقها إلى غياهب السجون أو الإعدام، في حين أنه حقيقة أنثروبولوجية لا يشكك بها إلا محدودو الثقافة والعنصريون، وفي عهدنا الحالي أصبح مسمى الشعب الكردي من المسلمات التي يتداولها العراقيون بمختلف انتماءاتهم، لكن المشكلة عندما يكون الحديث عن المكونات العراقية الأخرى إذ تنحشر جميعها تحت مسمى الشعب العراقي!، وهنا تكمن المشكلة، فالمسمى الأخير يعزل الشعب الكردي خارج دائرة العراق وكأنه شعب لدولة أخرى، بينما تسمية الكرد شعبا من شعوب الأمة العراقية يجنبنا هذا الخلط، وما ينطبق على الكرد هو حق لغيرهم أيضا من القوميات الأخرى.

كثيرون سيقولون إن الكرد الآن هم فعلا شعب لدولة انفصلت أو في طريقها إلى الانفصال عن العراق، وسواء اتفقنا أم لم نتفق مع هذا الطرح، فالحقيقة أن هذه نتيجة متوقعة للتهميش والإقصاء الذي مارسته الحكومات المتعاقبة ضد الشعب الكردي، وهذا ما نخشاه من استمرار تغييب الهوية الوطنية الشاملة لحساب هويات خارجية.

لست هنا بصدد الدفاع عن مكون دون آخر فالجميع عانوا ما عانوه من تلك الحكومات، لكنني اتخذ من الحالة الكردية مثالا واقعيا على فداحة التنكر لاستقلالية الأمة العراقية وزجها عنوة ضمن أمة قومية وأخرى دينية لا تتوافران على التعددية العراقية السلمية المتعايشة منذ آلاف السنين، وهو ما أدى إلى حالات الانقسام أو التوجه نحو الانفصال ليس لدى الكرد فحسب بل لدى عدة مكونات أخرى وأعتقد أن العام الحالي كان دليلا واضحا على تشتت الهوية العراقية.

يحدث مثل هذا الالتباس أيضا عند الحديث عن محافظة كركوك أو الامتداد العراقي في المنطقة، فحين يحتدم الخلاف حول هوية كركوك القومية يطالب الكرد بضمها إلى إقليم كردستان باعتبارها محافظة كردية تم تغيير هويتها الديمغرافية بالقوة من قبل النظام المباد، وفي المقابل يشدد الطرف الآخر على أن كركوك (عراقية) وهي تمثل (عراقاً مصغراً)، وهنا يتكشف الخلل، هل عراقية كركوك هي غير عراقية محافظات الإقليم؟ بالرغم من أننا نعرف المقصود بعراقية كركوك هو عربيتها، ويردف ذلك الخلل خلل أخطر حين يجري الحديث عن الامتداد العراقي في المنطقة إذ يتحول العراق فجأة إلى بلد (عربي) يجب أن يتناغم ويظل جزءا من محيطه العربي!، طيب، لماذا تكون كركوك عراقية لكن العراق بأكمله عربي؟ أين هي الهوية الوطنية الجامعة التي تنفرد بها الأمة العراقية؟!

نأتي لتعريف الشعب والأمة، الشعب بأبسط تعريفاته هو مجتمع بشري ذو أصل عرقي واحد، وقد تتنوع عقائده، إلا أن الأساس هو وحدة العرق، أعرف أن الكثيرين سيعترضون على هذا التعريف وما أرجوه هو النظر إلى الأمر بعيدا عن المتوارثات الثقافية والشعارات (القومجية)، وبتوضيح بسيط، إذا كانت وحدة العرق شرطا لتكوين الأمم فالأمة العربية والأمة الإسلامية أكبر كذبتين في التاريخ، فكلاهما متعددة الأعراق، والأولى متعددة العقائد أيضا.

إن مواصلة تفتيت الهوية العراقية وتقسيمها إلى كانتونات عرقية وعقائدية سينتهي لا محالة إلى تجزئة العراق إلى دول عدة وليس دولتين أو ثلاثاً كما يتوقع البعض، وبالتالي فإن الحل الأمثل هو التوحد تحت مسمى الأمة العراقية متعددة الشعوب والأديان.

جميعنا تغذت عقولنا وأفكارنا على أن أية تسميات تعددية تعني التفكك والتقسيم، ولذلك يجب صهر وضغط أية تعددية في بوتقة الشعب الأوحد أو الأمة القومية أو الدينية المتوحدة وهذا خطأ جسيم، الاعتراف بحق القومية المختلفة إنها شعب لا يعني بالضرورة دعوة للانفصال بل على العكس تماما التهميش والتغييب وعدم الاعتراف للآخر بحقه هو أس البلاء الانفصالي.

أما الأمة فهي تكوين بشري متعدد القوميات، قد تجمعها عقيدة واحدة ولكن في الغالب تكون الأمم متعددة العقائد، لكن التعددية القومية شرط أساس لتكّون الأمم، لا يعني ذلك أن الكثرة العددية هي الشرط بل التنوع العرقي، فإن افترضنا أن الصين تنحدر من قومية واحدة فذلك لا يسوغ تسميتها بالأمة الصينية، ومن هذا المنطلق سيقول البعض أن الأمة العربية ليست أمة وهذه حقيقة إذا كان المقصود هو القومية العربية، والسبب في ذلك هو أن لأية أمة ثلاثة مقومات أو اشتراطات وهي (الجغرافيا المشتركة، التاريخ المشترك، الثقافة المشتركة) وهو ما لا تتوافر عليه المنطقة العربية، فهي منذ الأزل كانت دولا منفصلة عن بعضها البعض ولا يجمعها جامع، ولم تصبح أمة إلا بعد ظهور الإسلام وانتشاره في تلك البلدان فأصبح لها تاريخ مشترك وثقافة مشتركة لكن جغرافيتها لم تتوحد، وبالتالي فإن وصفها بالأمة الإسلامية هو الأصح لكونه المشترك الوحيد بين شعوبها، هذا من جانب، أما في الجانب الآخر فإن إطلاق الصفة القومية (العربية) يمنع توحدها كأمة إذ أنها متعددة القوميات منذ فجر التاريخ، وبالرغم من أن شرط الجغرافيا المشتركة غير متوفر وشرطا شراكة التاريخ والثقافة لا ينطبقان على المكونات غير المسلمة، إلا أن عصر ما بعد الخلافة العباسية واستحكام الاحتلال العثماني على شعوب المنطقة وما فرضه من تاريخ مشترك هو الظلم والاضطهاد، وما أنتجه ذلك من ثقافة تكاد تكون مشتركة في بعض من جوانبها اعتمدت بالأساس على التاريخ والتراث الخاص بكل شعب وأنتج ما يشبه التمازج الثقافي بين الشعوب على اختلافها الديني والقومي، ومن ثم الاحتلالات الأوروبية التي غزت المنطقة ليس بدوافع عقائدية بل اقتصادية لما تحتكم عليه من ثروات طبيعية وموقع إستراتيجي للتجارة العالمية، كل هذه العوامل بإمكانها أن توحد شعوب المنطقة تحت مسمى أمة غير عربية.

أعتقد أن مواصلة تفتيت الهوية العراقية وتقسيمها إلى كانتونات عرقية وعقائدية سينتهي لا محالة إلى تجزئة العراق إلى دول عدة وليس دولتين أو ثلاثاً كما يتوقع البعض، وبالتالي الحل الأمثل هو التوحد تحت مسمى الأمة العراقية المتعددة الشعوب والأديان.

المـــصـــالـــح الـوطـنـيـــة

يعقوب يوسف جبر الرفاعي

لا يصلح حالنا السياسي دون إصلاح العلاقات الداخلية بين قادة الرأي وكذلك بين رموز الدولة بالارتكاز على المعايير الدستورية الواضحة ، لكن الإدمان على مزاولة لعبة الصراع السياسي المفضية إلى خلق المزيد من الأزمات لن تقود الدولة إلا إلى المزيد من التوترات .

هل العمل السياسي الرصين يتضمن تأجيج نار الصراعات أم يعني امتلاك القدرة على الحوار والتفاهم ؟ هل ثمة دافع من الجميع نحو تفعيل آلية الحرص على حماية المصالح الوطنية ؟

المصالح الوطنية المتعددة المجالات تتضمن أولاً ترتيب البيت الداخلي بعد ذلك نبدأ الخطوة التالية متمثلة في إيجاد الحلول للمشكلات التي نعيشها مع دول الجوار أو التي تعيشها دول الجوار مع بعضها البعض .

يتساءل المواطن يائسا عن مدى المسافة التي قطعتها الدولة في معالجة مشكلاتها الكلية ، هل تخطى السياسيون حدود الفشل ودخلوا مرحلة النجاح ؟ لا يزال المواطن في شك مما يجري ، يحبس أنفاسه عند بروز أية أزمة ، ما يزال مصابا بالرهاب السياسي والأمني والاقتصادي ، حتى أصبح هاجسه وشغله الشاغل ، متى يتنفس المواطن الصعداء !

متى يشعر المواطن أن آفاق الانفراج السياسي قد بانت خيوطها ؟ لا يزال المواطنون يتنفسون المعاناة ، لا يزالون ينتظرون تناغم السياسيين وتلاحمهم ليحل يوم الخلاص من الأزمات السياسية التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من الدولة حتى بدأ المواطن يشعر بأن الدولة الحالية لا تتحرك إلا وفق مبدأ الأزمات وافتعالها .

السياسيون لا يزالون يبحثون عن الحلول يا لها من مفارقة !

أو لم يحسموا أمرهم بصدد أسلوب تفعيل الحلول اللازمة ، هل ستأتينا الحلول بصورة عشوائية ؟

يبدو أن العمل السياسي قد تحول إلى لعبة خطرة أشبه ما تكون بلعبة جر الحبل يحاول كل طرف من خلالها تحقيق الغلبة على صاحبه مهما كلف الأمر .

ماذا لو ابتعد الجميع عن اللجوء إلى خيار إشراك دول الجوار في حل مشكلاتنا ؟ هل عجز السياسيون عن ذلك ؟ ما ذا ينتظرون بعد اليوم ؟هل ينتظرون المشورة من الدول الجوار ؟ لا شك أن المشورات الخارجية لا تعكس الهم الوطني بل تنطلق من حرص دول الجوار على مصالحها فقط ، معنى هذا أننا بلا سيادة وطنية بل تتنازع دولتنا وبلادنا المصالح الخارجية ، فيما تغيب مصالحنا الوطنية عن الواجهة .

أفضل الحلول تبدأ من داخل بيتنا وليس من خارجه ، لأننا أدرى وأعلم بجذور مشكلاتنا فلماذا نسمح لغيرنا ونمنحه الحق في إدارة شؤوننا ؟ هل سيتمكن السياسيون من عبور هذه العقبة عبر تجنّب الاستعانة بمشورات الآخرين؟

أســـــطـــورة!

ناظم محمد العبيدي

تقول أسطورة لطالما ترددت في الأفلام الأجنبية : إن من ينظر في عيني عدوه ساعة قتله سيعود ويسكن جسده ويظل يطارده إلى الأبد .

بعض سياسيينا يعتقد أنه عدو للرئيس السابق ويفخر أنه قارع النظام السابق طيلة عقود ، ويفخر بذلك ويريد منا تصديقه ونحن بطبيعة الحال نصدقه ، فمن ذا الذي لا يعادي مثل ذلك النظام إذا استثنينا المجانين والحمقى أو المنتفعين ؟ لكن السؤال الذي يجب أن نطرحه هنا : لماذا كان يعادي الرئيس السابق ؟ هل كان هذا بسبب مبادئ يؤمن بها تتقاطع مع التسلط وممارسة الدكتاتورية وما يلحق بها من مساوئ كارثية أضرت بالعراق وشعبه ؟ أهذا ما جعله عدواً له أم أن القضية تتعلق بالرغبة في الاستحواذ على الكرسي وأنه كان يحسد الجالس عليه ؟ للأسف يبدو أن الكثير من ساسة العراق بعد التغيير يعيدون رسم صورة القائد الفذ بطريقة أو بأخرى ، كأن روحه عادت وسكنت فيهم كما تقول أسطورة الأفلام ، فهم ناقمون ولن يرضوا إلا بمنصب الرئيس والقائد الأوحد لكي تهدأ أرواحهم التي تمددت لسبب غامض لا نعرفه ، ولا يبدو أنهم يعرفون كذلك ، فلم يسبق لهم أن كانوا رؤساء من قبل ولا تدل طبيعتهم التي يظهرون بها على شاشات التلفاز أنهم مؤهلون أو مستعدون للارتقاء بالعراق إلى ما يستحقه من مكانة ، ومادمنا نتحدث اليوم عن الديمقراطية بطريقة لم يسبق لها نظير في تاريخ كل الديمقراطيات في العالم ، فمن البديهي أن تترك قضية الحكم للشعب الذي ربما اختارهم فتهدأ روح القائد لديهم ، ونرى بعد ذلك ما سيقدمونه للناس من مشاريع وإنجازات .

إن بقاء السياسيين داخل حلبة الصراع وانشغالهم بلعبة من يحكم تشير للأسف إلى خلل أخلاقي كبير ، فقد أثبت التاريخ أن أسوأ الحاكمين في العالم هم أكثرهم تكالباً على المناصب ، وكيف يمكن أن يصبح هكذا منصب مطمحاً لأشخاص يعون جيداً حجم المسؤولية التي سيتحملونها ؟ لكن ذلك سيكون بالتأكيد مغرياً لمن لا يرى في المنصب إلا مغنماً يرضي مطامحه الشخصية وهذا ما يتنافى مع مصلحة الناس كما أثبتت التجارب ، ولهذا يسهل علينا فهم لماذا تتبدد قدرات العراق الاقتصادية والبشرية دون أن نشهد تطوراً ملحوظاً في مستوى الخدمات والإعمار ، فضلاً عن اختفاء المليارات من أموال الشعب العراقي الذي يتوق إلى حكام حقيقيين يقدمون له ما يحلم به منذ عقود ، إن معاداة النظام السابق ليست شهادة بحق أحد ، فلربما عادى الإنسان أشخاصاً يشبههم لدرجة كبيرة ، يشبههم على نحو يجعله غير قادر على التعايش معهم ، فمتى يعي المسكونون بشبح القائد الأوحد أن أرواحهم غدت مع الكرسي الذي يحلمون به أو اقتربوا منه ، هي نسخة معادة من ذلك الشبح الذي جثم طويلاً ؟ ومتى يدركون أنهم حين ينظرون ذات يوم في المرآة سيرون عدوهم . الذي يفخرون بمعاداته في وسائل الإعلام . ماثلاً أمامهم ، لأنهم أصبحوا نسخاً منه كما يراها الناس دون أن يعلموا ؟

عليهم أن يتعلموا الإصغاء إلى لسان الناس أو حالهم وليس إلى تلك النداءات التي تصدر من أرواحهم المنهومة إلى المناصب والغنائم ، فبهذا وحده فقط يكونون أعداءً حقيقيين لذلك الشبح ويتخلصون منه فلا يسكن أرواحهم مرة أخرى .